الطَّرِيقُ إِلَى جنَّةِ الدُّنْيَا

oo

أبوعِمَادْ الْأَثَرِي

الطَّرِيقُ إِلَى جَنَّةِ الدُّنْيَا

أَبُو عِمَادْ الْأَثَرِي

-قال شيخ الإسلام ابن تيمية-رحمه الله- :

إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لايدخل جنة الآخرة

«الوابل الصيب من الكلم الطيب»(109)لابن القيم

***** • ***** • ***** • *****

كَلِمَةٌ مُضِيئَةٌ

من الجهل أن يخفى على الإنسان مراد التكليف فينبغي للعاقل أن يأنس بانعكاس الأغراض، فإن دعا وسأل بلوغ غرض تعبد الله بالدعاء، فإن أُعطي مراده شكر وإن لم ينل مراده فلاينبغي أن يلح في الطلب لأن الدنيا ليست لبلوغ الاغراض وليقل لنفسه {وعسى أن تكرهُوا شيئًا وهوخير لكم}.

ومن أعظم الجهل أن يَمْتعِض في باطنه لانعكاس أغراضه، وربما اعترض في الباطن أو ربما قال حصول غرضي لايضر ودعائي لم يستجب وهذا دليل على جهله وقلة إيمانه وتسليمه للحكمة.

ومن الذي حصل له غرض ثم لم يُكدَّر ، هذا آدم طاب عيشه في الجنة وأُخرج منها. ونوح سأل في ابنه فلم يُعط مراده، والخليل ابتلي بالنار وإسماعيل بالذبح، ويعقوب بفقد الولد، ويوسف بمجاهدة الهوى، وأيوب بالبلاء وجميع الأنبياء على هذا.

***** • ***** • ***** • *****

وأما مالقيَ نبيُّنا محمد صلى الله عليه وسلم من الجوع والأذى وكدَر العيش فمعلوم.

فالدنيا وُضِعت للبلاء فينبغي للعاقل أن يُوطِّن نفسه على الصبر وإن يعلم أن ما حصل من المراد فلطف وما لم يحصل فعلى أصل الخلق والجِبلَّة للدنيا كما قيل:

طُبعت على كدَرٍ وأنت تريدها

صفوًا من الاقذَاءِ والأكْدار

ومكلِّف الأيام ضد طِباعها

مُتطلِّب في الماء جَذْوةَ نار

وهاهنا تتبين قوة الإيمان وضعفه فليستعمل المؤمن من أدوية هذا المرض والتسليم للمالك والتحكيم لحكمته، وليقل قد قيل لسيد الخلق: {ليس لك من الأمر شيء} ثم ليسل نفسه أن المنع ليس عن بخل وإنما هو لمصلحة لايعلمها وليؤجر الصابر عن أغراضه وليعلم الله الذين سلَّموا ورضُوا وأن زمن الابتلاء مقدار يسير، والأغراض مدَّخرة تُلقى

***** • ***** • ***** • *****

بعد قليل وكأنه بالظلمة قد انجلت، وبفجر الأجر قد طلع .

ومتى ارتقى فهمه إلى أن ماجرى مراد الحق سبحانه اقتضى إيمانه أن يريد ويرضى بما يُقدِّر ،إذ لو لم يكن كذلك كان خارجا عن حقيقة العبودية في المعنى وهذا أصل ينبغي أن يُتأمَّل ويعمل عليه في كل غرض انعكس

«صيد الخاطر»(625-627)

-بِسْمِ اللهِ الرَّحمَن الرَّحِيم-

فاتِحَةُ الْقَوْل

إن الحمد لله نحمد ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله مضل له ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم .

أما بعد : فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: «ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربا ، وبالإسلام دينا وبمحمد رسولا».[1] وقال أيضا : «من قال حين يسمع النداء : رضيت بالله ربا

[1] رواه مسلم (34) وكذلك الذي يأتي بعده برقم (386)

وبالإسلام دينا وبمحمد رسولا غفرت له ذنوبه ». فإن هذين الحديثين عليهما مدَار مقامات الدين وإليهما ينتهي ، فقد تضمنا الرضا بربو بيته سبحانه وألوهيته، والرضا برسوله والإنقياد له ، والرضا بدينه والتسليم له.

ومن اجتمعت له هذه الأربعة : فهو الصدِّيقُ حقا وهي سهلة بالدعوى واللسان ، وهي من أصعب الأمور عند الامتحان ، لا سيما فيما يخالف هوى النفس ومرادها ، فعندئذ يتبين أن الرضا كان دعوى باللسان فقط .

فالرضا بإلهيته يتضمن الرضا بمحبته وحده وخوفه ورجائه، والإنابة إليه وهذا كله متضمن لعبادته والإخلاص له.

والرضا بربوبيته يتضمن الرضا بتدبيره لعبده وبكل ما يفعله به ويقدره عليه في هذه الحياة الدنيا .

***** • ***** • ***** • *****

وأما الرضا بدينه فيتضمن الرضا بأمره تعالى ونهيه ، وألا يبق في قلبه حرج من حكمه ولو كان مخالفا لمراد نفسه .

وأما الرضا بنبيه رسولا، فيتضمن كمال الانقياد له، بحيث يكون أولى به من نفسه ، فلا يتلقى الهدي إلا من مواقع كلماته ولا يحاكم إلا إليه .

والرضا قد يكون كَسْبيا أي: أن يسعى العبد في تحصيل أسبابه وغرس شجرته ، فيجتني ثمرته، وقد يكون موهبة من الله لعبده .

ولما كانت أكثر النفوس يصعب عليها الرضا بما يقدره الله عليها لم يوجبه على خلقه ، رحمة بهم ، وتخفيفا عنهم لكن ندبهم إليه ، وأثنى على أهله خيرا ، وأخبرهم أن ثوابه رضاه عنهم الذي هو أعظم وأكبر وأجل من الجنان وما فيها ، فمن رضي عن ربه فيما قدره عليه ودبره له، رضي الله عنه وإذا رضي الله عنه أسبغ على

عبده من صنوف الخيرات والمسرات فلا يعمله إلا الله .

لذلك كان الرضا جنة في الدنيا قبل الآخرة ومستراح العارفين وحياة المحبين .

وليس من شرط الرضا ألا يحس بالألم والمكاره وقد أشكل هذا على بعض الناس فقالوا ، كيف يجتمع الرضا والكراهية وهما ضدان يمتنع اجتماعهما على الطبيعة ؟

وتحقيق الجواب فيه أن يقال :

لا تناقض بينهما وأن وجود التألم وكراهية النفس لما قدر عليها مما تكرهه لا ينافي الرضا ، وذلك مثل رضا المريض بشرب الدواء الكريه ، ورضا الصائم في اليوم الشديد الحر بما يناله من ألم الجوع والظمأ وهكذا .

وطريق الرضا أقرب طريق موصل إلى أفضل غاية وأعظم راحة ، لكن مع مشقة فيها وهذه

المشقة يتجاوزها صاحبها بهمة عالية ونفس زكية وتوطين النفس على قبول كل ما يرد عليها من الله، ويسهل هذا كله على العبد علمه بضعف نفسه وعجزه ورحمة ربه به فإذا شهد العبد هذا طرح نفسه بين يدي مولاه ورضي به، وانجذبت دواعي حبه ورضاه كلها إليه .

أما إذا لم يطرح العبد نفسه بين يدي مولاه ولم يرضى به وعنه، فنفسه مطرودة عن ربه ومولاه، وليست مؤهلة لقربه وموالاته أو هي نفس ممتحنة بأصناف البلايا والمحن .[2]

ولما كان أكثر أهل زماننا نفوسهم كهذه النفس التي أبت الانطراح بين يدي مولاها ولم ترض بما قدره الله عليها في هذه الدنيا من المكاره ، حتى أصبحت ممتحنة بأصناف الأمراض النفسية

[2]«مدرج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين» (519-2/523) باختصار

والبدنية وهذا أمر مشاهد اليوم لكل ذي عينين وواقع ماله من دافع .

ارْتَأَيْنا أن نضع هذا الكتاب بين يدي إخواننا المسلمين وأخواتنا المسلمات تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ، رجاع لربه ومولاه ، وعسى أن يرفع الله به الظلمة . ويكشف به الغمة ، وذلك من خلال الكلام على ثمرات الرضا وبيان آثارها على العبد معتمدين في ذلك كلام ابن القيم الإمام في كتابه المعطار " مدارج السالكين[3]" لما تكلم على منزلة الرضا متحرين في ذلك التيسير على القارئ باختصار كلام ابن القيم وتقريبه للفهم والله الهادي إلى سواء السبيل .

وقبل الشروع في ذكر ثمرات الرضا لا بأس أن نذكر نبذة ولو يسيرة على معنى الرضا في هذا

---

[3]كما اخذنا بعض الفصول في هذا الكتاب من " صيد الخاطر " للإمام الحافظ أبي الفرج ابن الجوزي رحمه الله .

المقام وبيان ماهيته وحقيقته حتى يكون العمل بمقتضاه ومعناه واضحا وجليا لدى القراء الكرام، فأقول وبالله أصول وأجول :

قيل في معنى الرضا ويُحكى عن يحيى بن معاذ: أن يكون حال العبد في العطية والمنع سواء، أن يقول: إن أعطيتني قبلت ، وإن منعتني رضيت وإن تركتني عبدت وإن دعوتني أجبت .

وقال بعض السلف أيضا : معنى الرضا سكون القلب إلى قديم اختيار الله للعبد أن اختار له الأفضل فيرضى به سواء وافق حظوظ نفسه أم لم يوافقها ، وقد قال جل في علاه : {عسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون }، فهو سبحانه لا يقدر على عبده إلا ما كان فيه لطف به كما قال تعالى على لسان يوسف عليه السلام:

{وقد أحْسَن بِي إذا اخرجني من السِّجن وجاء بكُمْ من البَدْوِ من بعْد أن نزَغَ الشَّيْطَان بَيْنِي وبَيْنَ إِخْوتِي إن ربِّي لطِيفٌ لمَا يشَاء إنه هُوَ العلِيمُ الحَكِيم}

فسبحان الله ما أحكمه في تقديره وما ألطفه بعبده .

وكان من دعائه صلى الله عليه وسلم : «اللهم أسالك الرضا بعد القضاء[4]».

ولا شك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يسأل ربه إلا ما هو أفضل وما فيه السعادة في الدارين: الدنيا والآخرة .

وقيل للحسين بن علي رضي الله عنهما: إن أبا ذر رضي الله عنه يقول :

---

[4] الحديث في »صحيح الجامع» برقم (1301(

«الفقر أحب إلي من الغنى والسُّقْمُ أحبُّ إليَّ من الصحة » فقال :

«رحم الله أباذر ، أما أنا فأقول : من اتَّكَل على حُسن اختيار الله له لم يتمن غير ما اختار الله له ».

ومن أعظم أسباب حصول الرضا :

أن يلزم العبد ما جعل الله رضاه فيه ، فإنه يوصله إلى مقام الرضا ولا بد ، وما جعل الله رضاه فيه أن يؤمن العبد بربه ويعمل الصالحات ويتواصى مع إخوانه بالحق والصبر كما قال تعالى:

{والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر}.

وقال تعالى :

{من عَمِل صَالحًا من ذكَرٍ أو أنْثَى وهو مؤمن فلنُحْيِيَنَّه حياة طيبة ولنجْزِيَنَّهُم أجرَهم بأحسَن ما كانوا يعملون}

بقي أمرمهم ينبغي التنبيه عليه وهو أن اتخاذ الأسباب للوصول إلى ما يحب العبد ويرضاه لا يتنافى مع رضاه بما اختاره الله له، بمعنى أن العبد قد يتعاطى أسبابا معينة للوصول إلى شيء يحبه فسواء وصل إليه أم لم يصل ، فهو على كل حال راض ، فاتخاذه للأسباب لم يخرجه عن كونه راض باختيار الله له .

ثم إن الرضا باختيار الله للعبد يكون على نوعين :

. النوع الأول : رضا العبد باختيار الله الشرعي الديني أي ما يتعلق بالصلاة والزكاة والصيام وأحكام العبادات والمعاملات التي جاء بها

الشرع ، وهذا واجب على العبد الرضا به بلا حرج كما قال عز وجل :

{ فلَا ورَبك لا يؤمنون حتى يُحَكِّمُوك فيما شَجَر بينهَم ثم لا يجِدوا في أنفسِهم حرجًا مما قضَيْتَ ويُسَلِّموا تسْلِيمًا }.

فاختيار العبد خلاف ذلك ينافي إيمانه بالله وتسليمه لأحكامه الشرعية .

النوع الثاني : اختيار الله الكوني القدري للعبد كالصحة والمرض والغنى والفقر ونحو ذلك فما يكون في ذلك موافق لمحبة العبد ومراده كالصحة والغنى فليس في الرضا به عبودية، إنما تكون عبوديته بالشكر.

أما من كان من القضاء الكوني القدري الذي يجري على خلاف مراد العبد ومحبته ولا يدخل تحت اختياره فهذا الرضا به مستحب وهو من مقامات أهل الإيمان وقد تضمن هذا الإختيار

من الحِكم العالية ما الله به عليم، ومعرفة هذا من أعظم المعينات على تحقيق الرضا.

*ثمرات الرضا بقضاء الله وقدره:

إعلم رحمك الله وإياي أن العبد إذا حقق الرضا وعمل بمقتضاه بأن تستوى النعمة والبلية عنده فإن ذلك يجعله يجني ثمرات عظيمة تعود عليه بالسعادة في الدنيا والآخرة، ونحن ذاكرون إن شاء الله بعض الثمرات رجاء أن يكون فيها عونا لإخواننا المبتلين في هذه الدنيا، فنقول وبالله التوفيق ومنه الإعانة والتسديد.

* أن الراضي باختيار الله له مفوض أمره لربه لعلمه بكمال حكمة مولاه ورحمته ولطفه وحسن اختبار الله له { عسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم } { إن ربي لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم}.

***** • ***** • ***** • *****

*إن صاحب الرضا جازم ومتيقن علما يقينا بأنه لا تبديل لكلمات الله ولا راد لحكمه وقدره ، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن {وما تشاؤون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليما حكيما}.

* وعليه فإن المصيبة والنعمة بقضاء سابق واقع لا محالة .

*أن الراضي لا يسخط جريان أحكام ربه لعلمه أنه عبد لسيده ومولاه المشفق به البار به والناصح له والمحسن به وفي الحديث أنه صلى الله عليه وسلم رأى امرأة وجدت صبيا في السبي فألصقته ببطنها فقال:« أترون هذه طارحة ولدها في النار» قلنا : لا وهي تقدر على أن لا تطرحه ، قال : «لَلَّهُ أرحم بعباده من هذه بولدها " [5]

---

[5] رواه البخاري (5999) مسلم (2754)

***** • ***** • ***** • *****

* إن الراضي محب ، والمحب الصادق في حبه هو الذي يرضى بما يختاره له حبيبه وهو هنا الله أرحم الراحمين قال تعالى : {والذين أمنوا أشد حبا لله} .

* إن الراضي يعلم من نفسه أنه يجهل عواقب الأمور وما تؤول إليه ، وأن الله سبحانه أعلم به بما بنفعه .

* إن الراضي يعلم أن الانسان ظلوم جهول فهو لا يريد دوما مصلحة نفسه ، لأن نفسه أمارة بالسوء وعليه فإن مصلحته فيما يكره أضعاف أضعاف مصلحته فيما يحب ، قال رسول الله صلى الله وسلم :

« حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات » [6]

---

[6] رواه مسلم (2822)

*أنه عارف بربه حسن الظن به لا يتهمه فيما يجريه عليه سبحانه من أقضيته وأقداره ،فلما حسن ظنه بربه أوجب عنده استواء النعمة والبلية ، ورضاه بما اختاره له سيده تبارك وتعالى .

* أنه يعلم أن نصيبه من المقدور الذي قدره الله عليه ما يتلقاه وما يواجهه به من رضا وسخط، فلا بد له من أحدهما، فإن رضى فله الرضا، وإن سخط فله السخط كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

«إذا أحب الله قوما ابتلاهم، فمن رضى فله الرضا ومن سخط فله السُّخْط [7]» ومعناه :

إذا رضي العبد بالمقدور أو بما قدره الله عليه انقلب في حقه نعمة وخف عليه حمله وثقله ، وأعانه الله عليه ، جزاءا وِفاقًا لمَّا رضي به {هل

---

[7] «الصحيحة»(146).

جزاء الإحسان إلا الإحسان } (سورة الرحمن : 59).

وأما إذا سخطه تضاعف عليه ثقله وهمه ، ولم يزدد إلا شدة وحزنا وهذا مشاهد عند الكثير لا سيما في هذا الزمان الذي بعد فيه الناس عن شريعة الله .

وسِرُّ المسألة : إيمان العبد بأن قضاء الله تبارك وتعالى خيرٌ له كما قال صلى الله عليه وسلم:

«والذي نفسي بيده لا يقضي الله للمؤمن قضاءً إلا كان خيرا له»[8]

*أن يعلم العبد أن من تمام عبوديته لله تبارك وتعالى في جريان ما يكرهه من الأحكام عليه ، أما إن كان لم يجر عليه منها ولا يقدر عليه إلا ما يحب ، لكان ذلك أبعد شيء عن عبوديته لربه

[8] " الصحيحة " (148)

***** • ***** • ***** • *****

عز وجل والتي تتجلى في الصبر والتوكل والرضا والتضرع والافتقار والذل والخضوع وغيرها، فلا تتم له حقيقة العبودية إلا بجريان القدر له بما يكرهه .

*أن يعلم أن رضاه عن ربه سبحانه في جميع الحالات يثمر رضا ربه عنه ، فإذا رضي عنه بالقليل من الرزق ، رضي ربه منه بالقليل من العمل ، وإذا رضي عنه في جميع حالاته وأوضاعه واستوت عنده وجد ربه أسرع شيء إلى رضاه عنه إذا ترضاه .

*علمه أن أعظم راحته وسروره في الرضا عن ربه جل وعلا في جميع الحالات، لأن الرضا باب الله الأعظم وجنة الدنيا، فجدير بمن نصح نفسه أن تشتد رغبته فيه، وأن لا يستبد له بغيره.

***** • ***** • ***** • *****

*أن السخط باب الهم والغم والحزن وشتات القلب وسوء الظن بالله، أما الرضا فيخلصه من ذلك كله، وبفتح له باب جنة الدنيا قبل الآخرة ، قال تعالى :

{ إن الأَبْرَار لَفِي نَعِيم } قال العلاّمة ابن القيم :

«إنهم لفي نعيم في الدور الثلاثة: الدنيا والبرزخ ويوم القيامة» .

* أن الرضا ينزل عليه السكينة والطمأنينة على قلبه ومتى نزلت عليه السكينة استقام حاله وصلح باله وأما السخط فيوجب انزعاج قلبه واضطرابه، وضيق عيشه .

*أن الرضا يفتح له باب سلامة قلبه من الغش والدغل والمرض، ومعلوم أنه لا ينجوا من عذاب الله إلا من أتى الله بقلب سليم من ذلك.

***** • ***** • ***** • *****

في حين تستحيل سلامة القلب مع التسخط وعدم الرضا فكلما اشتد رضا العبد كان قلبه أسلم وأنقى من الخبث .

*أن السخط يوجب تلون العبد ، وعدم ثباته مع ربه فإنه لا يرضى إلا بما يلائم طبعه ، والمقادير تجري دائما بما يلائم طبعه وبما لا يلائمه ، فكلما جرى عليه منها ملا يلائمه سخط ولم يرضى به من، فلا تثبت له قدم على العبودية [9]، أما إن رضي عن ربه في جميع الحالات، استقرت قدمه في مقام العبودية ونجى

[9] فاصابه بذلك الانتكاس والتعاسة كما قال صلى الله عليه وسلم : »تعِسَ عبد الدينار تعس عبد الدرهم ، إن أعطي رضي وإن لم يعط سخط ، تعس وانْتَكَس واذا شِيكَ (أي اصابه شوك) فلا انْتَقَشْ (اي لم يزل عنه الشوك)» رواه البخاري (2887) ، وانظر شرحه مستوفى في " فتح الباري " للحافظ ابن حجر .

من سخط ربه عليه . فلا يزيل التلون عن العبد شيء مثل الرضا .

*أن السخط يفتح عليه باب الشك في الله وقضائه وقدره وحكمته وعلمه ، فقل أن يسلم الساخط من شك يدخل قلبه ويتغلغل فيه ، وإن كان لا يشعر به .

فلو فتش قلبه غاية التفتيش لوجد يقينه معلولا ، أما الرضا فيفتح عليه باب الإيمان الحق واليقين الذي لا شك فيه ولا ارتياب ، فالرضا واليقين أخوان والشك والسخط قرينان .

*أن الرضا بالمقدور من أسباب سعادة ابن آدم والتسخط على القضاء من أسباب الشقاوة .

* أن الرضى يوجب له أن لا يحزن على ما فاته ولا يفرح بما أتاه ، وذلك من أفضل الإيمان، أما عدم حزنه على الفائت فظاهر ، وأما عدم فرحه

***** • ***** • ***** • *****

بما أتاه لعلمه أنه سيرحل عنه إما عاجلا وإما أجلا ، فكيف يفرح به ومآله الى زوال ولا بد .

*أن من ملأ قلبه من الرضا بالقدر ، ملأ الله صدره غنا وقناعة ، وفرغ قلبه لمحبة مولاه والإنابة إليه سبحانه والتوكل عليه ، أما من ملأ قلبه بالتسخط امتلأ قلبه فقرا وحزنا ، وفاته فلاحه وسعادته ، فالرضا يفرغ القلب لله والسخط يفرغ القلب من الله .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إِرْضَ بما قسَّم الله لك تكن أغنى الناس » [10]

*إذا رضي العبد عن تقدير ربه في جميع الحالات أثمر له ذلك الشكر الذي هو أعلى مقامات الإيمان، بل هو حقيقة الإيمان .

---

[10] الحديث في »صحيح الجامع .«

والسخط يثمر كفر نعم الله على عبده وربما أدى به إلى كفره بالمنعم عز وجل وسلوك سبيل الكافرين والعياذ بالله .

*أن الرضا ينفي عنه آفات الحرص واللهف على الدنيا وذلك رأس كل خطيئة وأصل كل بليه وأساس كل رزية فرضاه عن ربه في جميع الحالات ينفي عنه مادة هذه الآفات .

*أن الشيطان إنما يصطاد الانسان غالبا عند السخط والشهوة ، فيجعله يقول ما لا يرضي الرب عز وجل ويفعل ما لا يليق ، بخلاف الراضي فإنه لا يجرؤ على أن يقول ما لا يليق بتقدير ربه العزيز الحكيم ، بل يعلم أن ربه لطيف في تقديره وحكيم في أفعاله .

* أن الرضا بالقضاء أشق شيء على النفس بل هو ذبحها في الحقيقة ، لان فيه مخالفة هواها وطبعها وإرادتها ، فاذا رضيت ، بقضاء ربها

***** • ***** • ***** • *****

صارت مطمئنة فحينئذ تستحق أن يقال لها : { يا أيتها النفس المطمئنة إرجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي } [سورة الفجر 27-30] .

*أن الراضي يتلقى أوامر ربه الدينية الشرعية والقدرية بالانشراح والتسليم وطيب النفس ، بخلاف المتسخط فإنه يتلقاها بضد ذلك إلا ما وافق طبعه وارادته منها وهذا لا ينفعه ولا يثاب عليه، لأنه لم يرض به لأن الله قدره وقضاه وأمر به، وإنما رضي به لموافقته هواه وطبع نفسه .

* أن المعاصي كلها تأتي من عدم الرضا وإن الطاعات كلها أصلها من الرضا ، وهذا إنما يعرفه حق المعرفة من عرف صفات نفسه .

* أن عدم الرضا يفتح باب البدعة ، والرضا يغلق عنه ذلك الباب، فلو تأملت بدع الشيعة

الروافض والخوارج وغيرهم لرأيتها ناشئة من عدم الرضا بالحكم الكوني أو الديني أو كليهما جميعا .

* أن الرضا يخلص العبد وينجيه من مخاصمة الرب تبارك وتعالى في أحكامه وأقضيته الدينية والكونية والمتسخط مخاصم لربه في ذلك ، لذا كان أصل وسبب مخاصمة إبليس لربه من عدم رضاه بحكمه الديني والكوني لما أمره بالسجود لآدم فأبى واستكبر وكان من الكافرين ، فطرد من الجنة ولعن ومسخ .

* أن كل قدر يكرهه العبد لا يخلو إما أن يكون عقوبة على ذنب فهو دواء لمرض ، فلولا ان تداركه ربه الحكيم بالدواء لألقى به المرض إلى الهلاك ،أو يكون سببا لنعمة لا تنال إلا بذلك المكروه، فالمكروه ينقطع ويتلاشى وما ينتج عنه من النعمة دائم لا ينقطع

فإذا شهد العبد هذين الأمرين انفتح له باب الرضا عن ربه في كل ما يقضيه له ويقدره فسبحان العليم الحكيم .

* أن حكم الرب ماض في عبده ، وقضاؤه عدل فيه كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في دعاء رفع الهم : «ماض في حكمك عدل في قضاؤك[11]» فمن لم يرض بالعدل فهو من أهل الظلم والجور.

فقوله : «عدل في قضاؤك» يشمل العقوبة على الذنب ويشمل أيضا العقوبة بالذنب ، فلما أذنب العبد وعاقبه ربه كان سبحانه عدل في هذا ، وكذلك لما غفل العبد عن ربه وأعرض عن أمره عوقب بالذنب ووقع فيه كما قال تعالى:

---

11 " الصحيحة " (199)

***** • ***** • ***** • *****

{ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون} فكان نسيان مصالح أنفسهم عقوبة على نسيانهم وغفلتهم عن ربهم .

*أن أول معصية عصي الله بها في هذا العالم : إنما نشأت من عدم الرضا ، فإبليس لم يرض بحكم الله الذي حكم به كونا من تفضيل آدم وتكريمه ، ولم يرض بحكم الله الديني أيضا لما أمره بالسجود لادم وآدم لم يرض بما أبيح له من الجنة ، فضم إليه الاكل من الشجرة التي نهاه الله عنها ، ثم هكذا جاءت معاصي ذرية ادم من عدم الصبر وعدم الرضا .

* أن الراضي واقف مع اختيار الله له ، معرض عن اختياره لنفسه ، وهذا من قوة معرفته بربه تعالى أنه اللطيف الحكيم في تقديره كما قال

تعالى على لسان يوسف عليه السلام { إن ربي لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم } .

*أن يعلم أن منع الله سبحانه لعبده المؤمن المحب عطاء ، وابتلاؤه إياه عافية كما ، قال سفيان الثوري رحمه الله ، وذلك أنه لم يمنعه عن بخل وإنما نظر في عاقبة المؤمن لو أعطاه ما أراد لأضله وأفسده ، فمنعه لأجل مصلحته فتقديره_ سبحانه وقضاؤه عطاء وإن كان في صورة المنع، ونعمة وإن كان في صورة محنة . وبلاؤه عافية وان كان في صورة بلية .

ولكن لجهل العبد وغلبة طبعه عليه واغتراره بما يحس به ويراه أمام عينه عاجلا ، ولا يتبصر تلك الحكم والغايات العاليات ، لذا قال تعالى {وكان الإنسان عجولا } .

***** • ***** • ***** • *****

وقال صلى الله عليه وسلم : «لو تعلمون ما ادُّخِرَ لكم ما حزنتم على ما زوي عنكم » [12] قوله: « زوي عنكم » أي ما فاتكم من الدنيا .

قال المناوي في " فيض القدير " (317/5) :

«قال بعض العارفين ينبغي للعاقل أن يحمد الله على ما زوي عنه من الدنيا كما يحمده على ما أعطاه وأين يقع ما أعطاه والحساب يأتي عليه ، إلى ما عافاه ولم يبتله به فيشغل قلبه ويتعب جوارحه ويكثر همه ".

* أن الراضي مسلم لربه فارتاح قلبه ، لأنه يعلم أن ربه حكيم لا يفعل شيئا إلا بحكمة ، غير أن تلك الحكمة قد لا يبلغها العقل ، ألا ترى أن الخضر خرق سفينة وقتل شخصا فأنكر عليه موسى عليه السلام بحكم العلم ، ولم يطلع على حكمة الخالق ، فلما أظهر له الحكمة أذعن

---

[12] الصحيحة (2168)

واستسلم ، فإذا خفيت مصلحة العواقب على موسى مع مخلوق فأولى ان تخفى على غيره ، فإياك إياك أن تقيس شيئا من أفعاله سبحانه على افعال الخلق وأفعاله سبحانه هو قضاؤه وقدره .

وأول القوم إبليس فإنه رأى بفهمه أن تقديم الطين على النار ليس حكمة {أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين } فنسي أنه علم ذلك بزعمه بالفهم الذي وهب له ، وبزعمه بالعقل الذي منحه، فنسي أن الواهب سبحانه أعلم وأحكم . فالحكمة الربانية فوق العقل ، فهي تقضي على العقول والعقول لا تقضي عليها .

* أن الراضي في طيب عيش على الدوام لأنه مشغول برضا حبيبه والتزود للرحيل إليه ، فإن وجد راحة في الدنيا استعان بها في طلب الآخرة ، وإن وجد شدة اغتنم الصبر والرضا بها لعلمه

بثواب الآخرة وأنه مراده بخلاف عدم الرضا فإن صاحبه دائما في تنغيص من العيش وتحسر على فوات الحظوظ العاجلة .

*أن الراضي مثبت لكمال خالقه منزهه عن النقائص، بأنه سبحانه لا يقدر الأشياء عبثا وإنه بكل شيء عليم

* أن الراضي مقتد بصفوة وسادات البشر وهم الأنبياء والرسل وعلى رأسهم سيد ولد آدم محمد عليه وعلى الأنبياء جميعا الصلاة والسلام .

فمن تأمل في أحوال رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم وتفكر فيها رأى انه لما تكاملت معرفته بالخالق سبحانه ، رأى ان الخالق مالك ، وللمالك التصرف في مملوكه ، وراه حكيما لا يصنع شيئا عبثا ، فسلم تسليم مملوك لحكيم ، فكانت العجائب تجري عليه ولا يوجد منه تغير

ولا يصدر منه تأفف ، ولا يقول بلسان الحال : لو كان كذا ، بل يثبت للأقدار ثبوت الجبل لعواصف الرياح .

وقد بعث رسول الله صلى الله إلى الخلق وحده والكفر قد ملأ الآفاق ، فجعل يفر من مكان إلى مكان وتبعه أهل الطائف وهم يضربونه ويدمون قدميه ، وألقي على ظهره سلا جزور وهو ساكت ساكن ويخرج كل موسم فيقول : من يؤويني حت أبلغ رسالة ربي ؟ ! ثم خرج من مكة فلم يقدر على العود إليها إلا في حماية كافر ، ولم يصدر منه تأفف ولا من باطنه اعتراض ، إذ لو كان غيره لقال : يا رب أنت مالك الخلق ، وقادر على النصر فلم أُهاَن وأُذَل ؟

لكنه صلى الله عليه وسلم لم يقل ذلك وإنما قال يوم صلح الحديبية كما رواه البخاري (3182) ومسلم (1785) : «إني رسول الله

ولن يضيعني أبدا» فجمعت الكلمتان أصلين عظيمين : أن العبد مملوك لربه يفعل به ما يشاء وأنه سبحانه لا يُقدِّر الأشياء عبثا ، ثم يُبْتلي صلى الله عليه وسلم بالجوع فيشد الحجر ولله خزائن السموات والارض ، ويقتل أصحابه ويشج وجهه وتكسر رباعيته ويمثل بعمه وهو ساكت .

ثم يُرزق ابنا فيموت ويسلب منه ، ويخبر بما سيحري للحسن والحسين ويبتلى في زوجه عائشة وهي من أحب الناس إليه ، ويدعو إلى التوحيد والصدق والأمانة فيقال : كذاب ساحر ثم يمرض فيوعك كما يوعك رجلان وهو ساكن ساكت – ويشدد عليه الموت – وهذا والله قمة الرضا .

* أن الرضا من جملة ثمرات المعرفة ، فإذا عرفت ربك حق المعرفة رضيت بقضائه ، وقد

يجري في ضمن القضاء مرارات ، يجد بعض طعمها الراضي ، أما العارف فتقل عنده المرارات لقوة حلاوة المعرفة ، ومن ذاق طعم المعرفة وجد فيه طعم المحبة ، فوقع الرضا عنده ضرورة ، فينبغي الاجتهاد في طلب المعرفة بالأدلة ، ثم العمل بمقتضى هذه المعرفة بالجد في العبادة والطاعة .

*أن رضا الله عن العبد أكبر من الجنة وما فيها وذلك لأن الرضا صفة لله والجنة خلقه قال الله تعالى: (ورضوان من الله أكبر) بعد قوله : (وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها ومساكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم).

وهذا الرضا جزاء على رضاهم عنه في الدنيا ولما كان هذا الجزاء أفضل الجزاء كان سببه هو رضا العبد باختيار الله أفضل الاعمال .

*أن العبد إذا رضي عن ربه في جميع الحالات ولم يتخير عليه المسائل اغناه رضاه بما قدره الله له عن ذلك واشتغل بذكر ربه ، وكان من سؤاله له سبحانه أن يعينه على ذكره وبلوغ رضاه. فأعطاه الله بذلك أفضل ما أعطى السائلين كما قال صلى الله عليه وسلم :

« قال الله تعالى : من شغله ذكري عن مسئلتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين ».[13]

[13] حديث حسن : حسنه الحافظ ابن حجر والمعلمي اليماني وسليم الهلالي وابو اسحاق الحويني في تحقيق " فضائل القران " لابن كثير وقد بينت ذلك كله في جزء مفرد في تخريج الحديث بشواهده .

*أن الرضا يفتح باب حسن الخلق مع الله تعالى ومع الناس ، فان حسن الخلق من الرضا وسوء الخلق من السخط ، وفي الحديث :و«حسن الخلق يبلغ بصاحبه درجة الصائم القائم» [14]و «سوء الخلق يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب ». [15]

*أن الرضا يثمر سرور القلب بالمقدور في جميع الأمور وطيب النفس وسكونها في كل حال ، واعتقاد حسن تدبير مولاه وكمال حكمته ويذهب عنه شكوى ربه إلى غيره ، كما يوجب ترك الاعتراض على مولاه في ملكه.

*أن الرضا يذهب عن العبد الهم والغم والحزن .

---

14 كما صح في الحديث انظر »صحيح الجامع «

15 وبمعناه حديث حسن تراه مخرج في " الصحيحة" (906)

***** • ***** • ***** • *****

*أن الرضا ينجيه من عيب من لم يعبه الله ، ومن ذم ما لم يذمه الله ، فإن العبد اذا لم يرض بالشيء عابه بأنواع المعايب وذمه بأنواع المذام وذلك منه قلة حياء مع الله ، فيسقط العبد من عين ربه.

فلو أن رجلا صنع لك طعاما وقدمه اليك فعبته وذممته لكنت متعرضا لغضبه ومقته ، فيقطع ذلك عنك ولله المثل الأعلى في السموات والأرض.

* أن الرضا يفرغ قلب العبد من أثقال الدنيا وغمومها فيتفرغ لعبادة ربه بقلب خالص مطمئن مليء بالمحبة والإنابة إلى ربه ، فيحب اختيار الله ويقدمه على اختيار ومراد نفسه .

* أن الرضا من أعمال القلوب التي ليس لها حد تنتهي إليه، بخلاف أعمال الجوارح فإنها

***** • ***** • ***** • *****

تضاعف إلى حد معلوم محسوب وتقف عنده فيكون جزاؤها بحسب حدها .

والمحبة والرضا لا يفارقان صاحبهما وإن توارى حكمهما ، فصاحبهما في مزيد متصل ولو فترت جوارحه ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

هذا ما أعاننا الله عليه في هذا المقام وصلى الله وسلم وبارك على محمد وعلى اله وصحبه أجمعين والحمد لله رب العالمين .

فهرس الموضوعات

***** • ***** • ***** • *****

***** • ***** • ***** • *****

- الرضا ينجي صاحبه من ذم ما لم يذمه ربه40
- الرضا يفرغ قلب العبد من غموم الدنيا40
- الرضا من أعمال القلوب التي ليس لها الحد41